الفصل الخامس
جولة داخل أروقة الحياة

١- زوجة من عالم آخر :

مضت الأيام ولم تتوقف فيها زيارات هذه الكيانات والرجل الأشيب لى عند اكتمال القمر من كل شهر ، وقد تعايشت مع هذا الواقع المفروض علي فإنه لا حيلة ولا سبيل لى فى تغييره .. تاركا ورائى هم ذلك الغد المجهول لحين يأتى ذلك الغد .. فربما أعرف حينها ما ينبغى علي فعله حياله .. أو ربما لا أدرك ذلك الغد من الأساس .. أما الآن .. فإن لدى يوما أظفر به وأعيشه ..

وإستطعت الحصول على وظيفة لا بأس بها ، وفى إحدى ليالى الصيف الجميلة الساحرة هممت لأفتح نافذة غرفتى طلبا لإستنشاق ذلك الهواء الساحر الرقيق ، حينها سمعت صوتا من خلفى يقول .. إشتقنا إليك حبيبى فقد طال علينا غيابك .. نظرت خلفى فإذا بها واقفة عند أحد الأركان ، شاحبة البشرة ، تسيل الدماء من معصمها ، تنظر لي باسمة بينما تنهمر الدموع من عيناها بغزارة .. ومن تحت سريري خرجتا الطفلتان ، زاحفتان على بطنيهما ، منتفختا الوجه بلونهما المائل للزرقة ، وشفاهما الزرقاء ..

جلست على المقعد بجوار النافذة أنظر إليهن ولا أجد ما أقوله أو أفعله ..

- << ما بك ألم تشتاق لرؤيتنا ؟! >> ..

- << بلا .. ولكن ما أتى بكم إلى هنا ؟! >> ..

- << إن كنت لا تريد الإقامة معنا إذا سنقيم نحن معك >> ..

- << لكن الأمور هنا لا تسير على نحو جيد في الآونة الأخيرة ، وقد يكون فى وجودكن هنا خطورة كبيرة عليكن >> ..

- << لا تقلق سنغادر ليلة إكتمال القمر من كل شهر >> ..

- << أنتي على علم إذا بمجريات الأمور >> ..

- << وكيف لا أهتم وأعرف عن زوجى وحبيبى كل شئ ؟ .. بالمناسبة لقد حدثتك أمك بالأمس عن عروس لك ، أخبرها بأن لديك زوجة وطفلتين لن يسمحن لأحد أن يشاركهن فيك ما حييت >> ..

حينها شعرت بضيق فى صدري وقبضت نفسي ، حقا لقد سأمت ومللت من كل شئ ولم أعد أحتمل كل هذا .. كنت دائما أحدث نفسى وأشد من أزرها قائلا .. << مالى وللغد ! .. فالأدع شأن الغد للغد ، فإن لدى يوم أظفر به وأعيشه >> .. أما الآن وبعد أن أصبح لي زوجة وطفلتين من عالم آخر ويقيمون معى فى حجرتي .. فقد أفسد علي حتى ذلك اليوم ! ..

ومن جديد لم يعد أحدا يقرب حجرتي .. فقد كان من دأب المرأة والطفلتين أن تتعالى أصواتهم بالبكاء فى منتصف كل ليلة كما كان ذلك دأبهم حيث كانوا فى شقتهم بذلك العقار .. فلم يعد هناك العقار رقم (١٠١) الذي يتجنب ويخشى الجميع الإقتراب منه .. بل أصبح هناك الآن حجرتى أنا .. هى من يتجنب ويخشى الجميع أن يقربوها ! ..

ترى هل هذا يحتمل ؟! ..

أظننى الآن قد بت أتعجل قدوم ذلك الغد لينتهى معه كل هذا العناء ..

****

مضت الأيام .. وكالعادة الإستيقاظ متأخرا أول أيام العمل من كل أسبوع أصبح شئ مقدس بالنسبة لى .. أين ذهب ملمع الحذاء ؟! .. لقد كان هنا بالأمس! ..

- << أتبحث عن شئ ياحبيبي ؟! >> ..

اللعنة لقد مضى قرابة العام على إقامتها هى وطفلتيها معى فى هذه الغرفة ومازلت إلى الآن أتفاجأ وأفزع من ظهورها ؟! ..

كان مصدر الصوت قادما من خلفى .. فنظرت فإذا بها واقفة عند أحد الأركان من الغرفة كعادتها .. فتحدثت إليها بعصبية أنفس بها عن توترى وفزعى قائلا :

- << أين ملمع الحذاء ياهانم ؟ .. ألا يمكننى الإحتفاظ بشئ داخل حجرتى ! >> قالت والبسمة لا تفارق وجهها كعهدى بها منذ أن اقتحمت حياتى ..

- << إهدء قليلا ياحبيبى فالأمر لا يحتمل كل هذا الغضب >> ..

فقلت لها بانفعال ضاربا بيدى على سطح المكتب الخشبى ..

- << أهدء ! .. وكيف لى أن أهدأ ؟! .. قلت لكى إنه كان هنا ؛ كان هنا>> ..

وإذا بأحدهم يرمى بملمع الحذاء من تحت السرير .. آاااه .. إنه أنتما إذا .. أخرجا من عندكما ..

- << ألم أقل لكما ألا تختبآن تحت سريرى فهذا الأمر يفزعنى ولا أستطيع النوم بسببه ؟! .. ثم ماذا كنتما تفعلان بملمع الحذاء تحت السرير ؟! .. لقد حولتم حياتى إلى كابوس ولم أعد أحتمل كل هذا الجنون >> ..

وهممت أن أرتدى الجورب فإذا بها تقول ..

- << ألم يحن الوقت بعد كى تبدل ذلك الجورب ؟! >> ..

- << لا فأنا أود أن أقتل به ذلك الحقير مدحت >>

- << ولما لا تدعنى أخلصك منه وأريحك من هذا العناء ؟! >> ..

- << لا تتدخلى فى شؤنى خارج هذه الغرفة .. فأنا قادرا على تدبر أمورى بنفسى .. أظننا لن نتحدث فى هذا الأمر مجددا >> ..

- << كما تريد حبيبى .. كما تريد ! >> ..

٢- لص الحافلة :

خرجت من المنزل مسرعا فى محاولة بائسة لإدراك الوقت .. وها هي الحافلة .. فكم أنا محظوظ أن أجدها بهذه السرعة .. كانت الحافلة مزدحمة ؛ فوجدت لنفسى مكانا مناسبا للوقوف وسط هذا الزحام وكل هذه الأجسام التى تكاد أن تكون متلاصقة ، أمسكت بمسند المقعد الذي أمامى ، وأطلقت نظري خلال النافذة المواجهة لى أشغل عيني باللاشيء ، بعد أن خلا رأسي من كل شيء ..

وبينما أنا في تلك الحالة انتبهت فجأة إلى أصابع متلصصة تحاول التسلل إلى جيب سروالي الأيسر .. فانتفضت .. وكردة فعل طبيعية حركت يدي اليسرى بسرعة لأغطي بها جيبي ، فتفاجأت الأصابع من إنتباهي وردة فعلي فانسحبت بسرعة البرق ، فأدرت رأسي بحركة تبدو عفوية إلى يساري ؛ فإذا به شاب ثلاثيني ، نحيف الجسد ، قمحي اللون ، مكتوب على وجهه كلمة (نشال)

يقف مرخيا يمناه بجواره بصلابة ، شاخصا ببصره خلال النافذة مظهرا عدم الانتباه .. فلمعت عيني وارتسمت على وجهى تلك الإبتسامة الشيطانية الخبيثة ورفعت يدى اليسرى لأضعها على مسند المقعد الذى أمامى مرة أخرى ، كاشفا جانبى الأيسر تماما أمام اللص داعيه للمبارزة .. فقد مضت فترة طويلة قد حرمت فيها من لذة المغامرة والتحدي ؛ وتذوق طعم النصر .. وعلى أى حال فأنا لا أراهن على نفيس ؛ وليس لدى ما أخسره ، فلم يكن فى جيب سروالى الأيسر سوى نصف جنيه متبقى من أجرة الحافلة السابقة ..

ولم يخيب اللص ظنى حيث عاود المحاولة ، فعاودت مفاجأته بإنزال يدى سريعا دون النظر إليه .. واستمر الوضع بين كر وفر بينى وبين اللص ، بينما كل منا مثبت عينه على النافذة التى أمامه مدعيا عدم الإنتباه ؛ وفى قرارة نفسه يعلم يقينا أن الطرف الثانى قد فضح أمره ، وأن المواجه أصبحت تحدى واضح وعلى (المكشوف) ، فأخذ كل منا الأمر على عاتقه واحتمى بيننا الوطيس بعد أن تحول الوضع إلى أمر شخصى بينى وبينه ..

كانت محطتي قد اقتربت ، ولكني عقدت العزم ألا أترك الحافلة ، وأن أظل مع اللص حتى النهاية ، وليذهب العمل والدنيا بأسرها إلى الجحيم ..

ولكن قبل محطتي بمحطة واحدة ، رفع اللص الراية البيضاء معلنا هزيمته ، وانسحب نازلا من الحافلة ! فضجت أعماقي بصيحات النصر ، والتقت عينى بعين اللص الذى إلتفت ليرمقنى بنظرة نارية مشبعة بكل معانى وإشارات التحدى فور نزوله على رصيف المحطة إلى أن تحركت الحافلة ..

وهاقد شرفت محطتى على الوصول فأخذت أشق الزحام وصولا إلى باب النزول من الحافلة .. وأخيرا نزلت بسلام من صندوق الدنيا هذا تملؤنى نشوة النصر ، فأخذت أهندم ملابسى بعد معركة الوصول إلى باب الحافلة ، ووضعت يدى فى جيبى الأيسر .. فلم أجد ال (نصف جنيه) !! .. لقد فعلها اللص اللعين !! ..

فتبدلت حلاوة النصر التى إعتدتها إلى مرارة الهزيمة التى لم أتذوقها من قبل ، حيث وقفت متسمرا مكانى لبعض الوقت ، أنظر خلفى فى دهشة وكأننى أبحث عن اللص وسط هذا الزحام رغم علمى بنزوله فى المحطة السابقة ..

فقلت فى نفسى مواسيا .. هون عليك فقد كنت تقارع الرجل فى عقر داره وفى مجال تخصصه ، فالسرقة هى مهنته ومصدر رزقه ؛ فماذا كنت تنتظر أيها الأحمق غير هذه النتيجة ؟! .. وبعد أن تخلصت من حالة التسمر والدهشة تلك ذهبت إلى حال سبيلى ..

دخلت إلى مكتبى بوجه عبوث غاضب فاستقبلنى مدحت بوجه بشوش سائلا .. مابك ياصديقى ؟ .. لعلك تكون بخير !! .. فأجبته .. بخير ؛ بخير .. ثم جلست على المقعد ؛ وأول شئ قمت بفعله هو أن خلعت خذائى ؛ فتبدلت على الفور ملامح مدحت واحتقنت الدماء فى وجهه وأخذ يتمتم ويثرثر ببعض الكلمات ؛ أحسست حينها ببعض الرضى وهدأت نفسى قليلا وأخذت أهيئ نفسى ليومى جديد فى العمل ..

فكم من المكائد دبرها لى هذا البغيض وكانت تنعكس كلها عليه ؟! ..

فقد كان جرمي وسبب معاداته لى هو أننى أقوم بعملى كما يجب بينما هو لا يريد فعل ذلك !! .. وكان هذا يفضح أمره أمام المديرين ..

وهذا هو حال الفاسدين في مجتمعنا .. يحاربون ويعزلون ، وربما يقتلون كل شريف حتى لا يكون شاهدا على فسادهم ! ..

فمشاعر الكره التى يكنها لى هذا البغيض فى صدره لم أرها من قبل إلا فى تلك الكيانات الغاضبة على هيأة الجمال التى كانت تطاردنى وتريد قتلى فيما مضى وأيضا فى نظرة مدير المدرسة الإبتدائية لى حين قمت بفضخ وكشف إختلاسه للجميع ، حيث لم يتوقع الرجل أن طفل فى الصف الرابع الإبتدائى يستطيع التمييز بين علامة الجنيه والقرش على مبلغ الجائزة المقدمة لى من الوزارة لحصول لوحتى الفنية على المركز الأول في المسابقة التي أقامتها الوزارة على مستوى المحافظة .. فقد أعطانى خمسة وسبعون قرشا بينما المبلغ الذي طلب منى التوقيع على إستلامه كان خمسة وسبعون جنيها !!! ..

فالعالم الذى نعيش فيه يعج بمثل هؤلاء اللصوص والفاسدين ، بدأ من النشال الذي قابلته اليوم بالحافلة مرورا بكل المؤسسات والهيآت والوزارات وصولا الي أعلي المراكز التي يمكن أن تتخيلها في هذا المجتمع ! ..

وبشكل مفاجئ تحرك دفتر الملاحظات الخاص بي على مكتبى وتم فتحه بشئ من العصبية .. نظرت لأطالع محتواه ؛ فإذا مكتوب به ..

- << لا تبادلها الإبتسامة وإلا قتلتها لك هذه المرة !! >> ..

فنظرت عن يمينى فإذا بها الزميلة (إيمان) ؛ حسناء الشركة ؛ الجميع هنا يتوددون إليها ويتمنون أن تعطف عليهم بنظرة وابتسامة كتلك التى ترمقنى بها الأن ، فأظن أننى أروق لها ، وعلى مايبدو تعتبرنى فتى أحلامها ! ..

فهذه الحسناء التعيسة لا تعلم مدى الخطر المحدق الذى يحوم حولها الآن ؛ ففى المرة السابقة دفعتها تلك المرءة الملعونة من على الدرج وتسبب ذلك فى كسر ذراعها وإصابتها بالعديد من الكدمات ، وقد عادت اليوم لتوها من أجازتها المرضية ، بعد أن تغيبت عن العمل شهرا كاملا لتتعافى من سقطتها .. وأظنها الأن تنتظر منى بعضا من الحفاوة والسؤال عن الأحوال .... وإلخ ..

وبدون تردد أخرجت ورقة بيضاء قمت بكتابة نص الإستقالة بها ..

يكفى ما تسببت به من أذى لهذه الفتاة المسكينة ؛ فلا أريد أن أتسبب فى قتلها هذه المرة ..

****

٣- العهـد :

خرجت من المكتب بعد أن تخلصت أخيرا من إلحاح هذا المدير المندهش .. فقد كان قرار إستقالتى مفاجئ له وليس له أى مبرر ، ولم يكن له أى مقدمات ؛ فأنا هو أفضل موظفيه على حد قوله ؛ والفتى المدلل الذى لا يرفض له طلب لدى رؤسائه فى العمل ! ..

وحين عودتى إلى المنزل ؛ اتجهت مباشرة إلى غرفتى دون أن أتحدث لأحد ؛ حيث كان يعترينى شعور باليأس والإحباط .. وقد كانت الأجواء فى الغرفة هادئة على غير العادة ، فلابد أنها إذا إحدى ليالى إكتمال القمر ؛ فهذا ماكان ينقصنى اليوم ..

ألقيت بجسدى على السرير دون أن أبدل ملابسى وغط فى نوم عميق ؛ فكان هذا النوم بمثابة الهروب من هذا الواقع المرير ، والذى لا أعلم على أى هول سينتهى ، ولا أملك أن أفعل شئ لتغييره ..

وبحلول منتصف الليل أيقظونى من النوم ، ولكن كانت هذه الليلة مختلف عن الليالى السابقة .. ففى هذه الليلة ، كان عدد الزائرين سبعة أشخاص كلهم على هيئة ذلك الرجل الأشيب ، فعلمت أنه ربما قد حان الوقت ..

فاصطحبونى للولوج عبر النافذة ، وهى نافذة بين العالمين غير مرئية بالنسبة لى ودائما ما كانت تفتح عند أحد الأركان من الغرفة ، حيث تنقلنى من غرفتى إلى إحدى الأماكن من عالمهم فى ليلة اكتمال القمر من كل شهر ..

وفى هذه الليلة عبرت إلى ميدان كبير دائرى الشكل ، أرضيتة مصنوعة من الرخام الغريب والذي لم أرى مثله من قبل ، تحيط به مدرجات رخامية مرصوص عليها تماثيل ذهبية متماثلة فى الشكل والحجم ، ومن بعيد هناك عدد كبير من الكيانات فى هيئة بشرية متماثلة الشكل أيضا ، مصطفين فى صفوف متوازية ، يتقدم صفوفهم رجل أشيب مهيب الهيئة ، وكان أمامى منضدة رخامية عليها قدر من ذهب مملوء بالدماء وبجانبه ريشة ورقعة من الجلد .. وهنا تحدث إلي ذلك الأشيب المهيب قائلا ..

- << أكتب ما سأمليه عليك فى هذه الصحيفة >> ..

فأمسكت بالريشة وأغمستها فى الدماء ، فقال ..

- << أكتب بسم عزازيل رب العرش العظيم .... إلخ >> ..

وأخذ يملى على بقية العهد والقسم بينما كنت أكتب فى رقعة الجلد هذه ،

وما أن إنتهى من إملاء القسم علي حيث قال ..

- << والأن أمسك بالصحيفة واقرأ علينا ما كتبته فيها بيدك وبصوت عال مسموع للجميع >> ..

فأمسكت بالصحيفة وقرأت ما بها بصوت جهور قائلا:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

وهنا عمت الفوضى والغضب أرجاء المكان ، وبدأت التماثيل تتساقط ، وانطلقت نحوى مئات الكلاب الغاضبة المكشرة عن أنيابها ..

فأغمضت عينى واسترسلت فى القراءة وأنا مبتسم وراض عن هذه النهاية السعيدة من وجهة نظرى ، فلم تكن حياتى بتلك الحياة التى أبكى عليها على أى حال ، فعلى الأقل سأموت على دينى ، (واللهم لا عيش الى عيش الأخرة) ..

فسمعت صوتا يشق الظلام ويداعب أذنى برفق قائلا ..

- << قم ياحبيبي .. قم ستتأخر على المدرسة >> ..

ففتحت عينى فى حذر ، وإذا بها أمى واقفة عند رأسى ، فقمت فزعا من مكانى

- << أمى .. أين .. و .. >> ..

- << لا وقت لدينا لهذا .. هيا أسرع فقد تأخرت على المدرسة وصديقك (بكر) فى إنتظارك بالخارج ..... >> ..

- << بكر ! .... كيف ؟ ... و ... >> ..

- << قلت لك هيا أسرع وإرتدى ملابسك >> ..

وها قد دخل علينا الأستاذ (طايع) مدرس أول اللغة العربية ، جهبذ من جهابذة اللغة ، وعلم من أعلام الأدب ، دخل متأبطا خرزانته الرشيقة ، ويحمل فى يده حقيبة بنية مصنوعة من الجلد .

- قيام
- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
- جلوس

ثم وضع حقيبته على المنضدة ، وأخرج منها كشكول التحضير ، ثم أمسك بالطبشورة وإتجه إلى السبورة ، تأكد أن البسملة تتوسطها ، والتاريخ الهجرى على يمينها والميلادى على الجانب الآخر منها ، ثم كتب جملة طويلة وضع تحت إحدى كلماتها خط ليميزها ، ثم رجع خطوتين للخلف ، وأشار بخرزانته الرشيقة على الكلمة المميزة قائلا .. أعرب ما تحته خط ..

فرفعت يدى ، ورفع (بكر) يده بحماس مبالغ فيه حتى أنه كاد أن يفقع عين الأستاذ (طايع) بيده حين إقترب منه ، وكاد أن يفسد الأمر بحمقه هذا ، لولا أن

شغف الأستاذ (طايع) باصطياد أكبر عدد من الفرائس أعماه عن إكتشاف الحيلة التى أصبحت واضحة للأعمى بفضل هذا الأحمق ،

وسر صديقى (بكر) كثيرا أنه قد أفلت من بطش الأستاذ (طايع) وذلك لأنه تقريبا كان يعاقب فى كل حصة ويقضيها واقفا عند الحائط بجوار (عبد الرحيم) ونخبة من الأصدقاء فى أخر الفصل إلى نهاية الحصة ..

وبعد انتهاء المدرسة وفى طريق عودتى إلى المنزل أنا و (بكر) رأيت جروا رضيعا بجانب جدار أحد المنازل ، كان يأن من الجوع ، ولا أعلم ما الذى جذبنى إليه! .. فأنا لست مولع باقتناء الحيوانات عامة وخصوصا تلك الكلاب ، ولكنى وجدت نفسى أميل عليه وأتفحصه ، فقال بكر متسائلا :

- << ماذا تفعل ؟! .. أتركه وهيا نمضى فى طريقنا >> ..

فنظرت إليه قائلا ..

- << سوف آخذه معى إلى المنزل وأتولى رعايته .. فأظنه سيكون كلبا جيدا >> ..

فرد بكر قائلا .. << بل أظنه سيكون كلبا ملعونا >> ..

فسألته عن وجهة نظره فقال .. << وما ظنك بكلب يربيه شيطان مثلك ؟! ..

ماذا عساه أن يصبح غير كلب ملعون ؟ >> ..

هنا انتابنى شعور غريب .. شعور متكرر دائما معى ..

شعور بأننى كنت هنا من قبل ! ..

شعور بأننى سمعت هذا من قبل ..

شعور بأن كل هذا قد حدث فعلا من قبل ! ..